

لوثر والإصلاح

المحاضرة ١: من لوثر حتى الصاعقة

أ.ر. سي. سرول

في مَدِينَةِ جِينِيفِ الحَدِيثَةِ فِي سويسرا هُنَاكَ قِسْمٌ فَوْقَ المَدِينَةِ يُدْعَى مَدِينَةَ جِينِيفِ القَدِيمَةِ. فِي وَسَطِ ذَلِكَ القِسْمِ مُنْتَزَهُ كَبِيرٌ قُرْبَ الجَامِعَةِ. أَتَبَّرُ مَا فِي ذَلِكَ المُنْتَزَهُ هُوَ حَائِطٌ كَبِيرٌ مِنَ الرُّخَامِ، وَهُوَ يُدْعَى حَائِطَ الإِصْلَاحِ. وَبِجَوَارِ حَائِطِ الإِصْلَاحِ تَمَامًا تَجِدُونَ تَمَائِيلَ مُتَعَدِّدَةً وَرُسُومَاتٍ أُخْرَى فِي الحَائِطِ عَيْنِهِ عَن مُصْلِحِي القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ المُذْهِلِينَ. نَرَى فِيهِ لُوثَرَ، وَمَلَانُكُون، وَكَالْفِين، وَبِيْزَا، وَتُوكْس، وَبِيُونْتَرز، وَزُوينغلي، وَآخَرِينَ أَيْضًا. وَعَلَى قِمَّةِ حَائِطِ الإِصْلَاحِ، حُفِرَتْ فِي الحَجَرِ الكَلِمَاتُ الَّتِي تُدَخِّصُ شِعَارَ إِصْلَاحِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، وَالكَلِمَاتُ هِيَ التَّالِيَةُ "بُوسْتِ تِينِيْبِرَاس، لُوكْس". اسْمَحُوا لِي أَنْ أَدُونَهَا لَكُمْ لِيَأَلَّا نَنْسَاهَا، "بُوسْتِ تِينِيْبِرَاس، لُوكْس". وَتَرْجَمُهُ هَذَا الشَّعَارِ هِيَ بَسِيطَةٌ "بَعْدَ الظَّلَامِ، نُورٌ".

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَبْحَثَ فِيهِ هُوَ التَّالِي، مَا كَانَ "التِينِيْبِرَاس" المُقْتَرَحُ فِي الشَّعَارِ؟ مَا هُوَ الظَّلَامُ المُشَارُ إِلَيْهِ؟ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الإِصْلَاحِ، يُشِيرُ الظَّلَامُ إِلَى مَا حَدَثَ تَدْرِيجِيًّا لَكِنْ بِاسْتِمْرَارٍ لِكَنِيسَةِ رُومَا الكَاتُولِيكِيَّةِ، فِي خِلَالِ العُصُورِ المُظْلِمَةِ عِبْرَ القُرُونِ الوُسْطَى وَوُجُودًا إِلَى الإِصْلَاحِ. كَانَ هُنَاكَ تَغْيِيرٌ مُنْتَظَمٌ لِقَهْمِ الكَنِيسَةِ المَسِيحِيَّةِ وَفَقَّ الكِتَابِ المُقَدَّسِ، وَالأَهَمُّ هُوَ مَسْأَلَةُ الخِلَاصِ. وَمَا تَطَوَّرَ فِي رُومَا فِي تِلْكَ المَرَحَلَةِ هُوَ مَا نَدْعُوهُ فِي اللَّاهُوتِ "السَّاسِيْرُدُوتَالِيْسْم". قَدْ لَا تَأَلْفُونَ هَذَا التَّعْيِيرَ "السَّاسِيْرُدُوتَالِيْسْم"، لَكِنْ مَا يَعْنِيهِ أَسَاسًا هُوَ فِكْرُهُ أَنَّ الخِلَاصَ يَتَحَقَّقُ بِشَكْلِ أَسَاسِيٍّ مِنْ خِلَالِ خِدْمَاتِ الكَنِيسَةِ وَمِنْ خِلَالِ الكَهَنُوتِ، وَبِخَاصَّةٍ مِنْ خِلَالِ مُمَارَسَةِ الأَسْرَارِ.

وَكَانَ تَطَوُّرُ نِظَامِ الخِلَاصِ هَذَا بِأَكْمَلِهِ ضَمَنَ الكَنِيسَةِ الكَاتُولِيكِيَّةِ، هُوَ مَا سَبَبَ الأَزْمَةَ فِي إِصْلَاحِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. قَبْلَ أَنْ نَصَلَ إِلَى الحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَيْهِ، وَالأَشْخَاصَ الَّذِينَ اسْتَخْدَمَهُمُ اللهُ لِتَحْقِيقِهَا، أُرِيدُ أَنْ أُمَيِّزَ أَمْرًا مُهِمًّا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْ، وَهُوَ أَنَّ المُصْلِحِينَ أَنفُسَهُمْ اعتَبَرُوا عَمَلَهُمْ إِصْلَاحًا وَلَيْسَ ثُورَةً. لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى نَشَاطَتِهِمْ عَلَى أَنَّهَا ثُورَةٌ مُنْظَمَةٌ ضِدَّ الكَنِيسَةِ أَوْ ضِدَّ المَسِيحِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ. لَكِنْ بِشَكْلِ مُشَابِهٍ لِأَنْبِيَاءِ إِسْرَائِيلَ فِي القَرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ قَبْلَ المِيلَادِ رَأَوْا مُهِمَّتَهُمْ عَلَى أَنَّهَا دَعْوَةُ الكَنِيسَةِ لِتَعُودَ إِلَى شَكْلِهَا الأَصْلِيِّ، وَإِلَى اللَّاهُوتِ الأَسَاسِيِّ لِلِكَنِيسَةِ الرُّسُولِيَّةِ، أَيَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُحَاوِلُوا إِنْشَاءَ أَمْرٍ جَدِيدٍ، وَلَمْ يَقْصِدُوا إِنْشَاءَ شَكْلِ جَدِيدٍ، بَلِ القِيَامَ بِإِصْلَاحِ دَعْوَةِ الكَنِيسَةِ لِلْعُودَةِ إِلَى جُذُورِهَا وَأُصُولِهَا.

قَرَأْتُ هَذَا الصَّبَاحَ فِي الجَرِيدَةِ قِسْمًا أَقْرَأُهُ كُلَّ يَوْمٍ، يُعَلِّمُنَا مَا حَدَثَ فِي هَذَا التَّارِيخِ المُحَدَّدِ فِي المَاضِي. وَلَقَدْ تَنَنَيْتُ هَذَا الصَّبَاحَ عِنْدَمَا قَرَأْتُ فِي الجَرِيدَةِ، أَنَّهُ فِي هَذَا التَّارِيخِ فِي عَامِ ١٥٠٤ أَظْهَرْتَ لِلْعَالَمِ مَنْحُوتَهُ مَايْكِلَ أَنْجَلُو وَعُنْوَانُهَا

دايفيد. وَوَجَدْتُ هَذَا مُلْفِتًا أَنَّهُ حَدَثَ قَبْلَ سَنَةِ مِنْ حُدُوثِ أَعْظَمِ أَرْزَمَةٍ فِي حَيَاةِ مَارْتِنِ لُوَثِرٍ، وَقَدْ حَدَّثَتْ عَامَ ١٥٠٥. وَسَتَكَلَّمُ عَنْهَا بَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقٍ. لَكِنِّي سَأَلْتُ نَفْسِي السَّالِي "مَاذَا كَانَ مَارْتِنُ لُوَثِرُ يَفْعَلُ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ عَامِ ١٥٠٤؟" فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ عَامِ ١٥٠٤ كَانَ عُمُرُ مَارْتِنِ لُوَثِرِ ٢١ سَنَةً، وَقَدْ أَكْمَلَ مَاجِسْتِيرًا فِي دِرَاسَتِهِ لِلآدَابِ وَتَسَجَّلَ فِي الْجَامِعَةِ فِي دِرَاسَةِ الْقَانُونِ. عِنْدَمَا أَكْمَلَ وَحَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ الْمَاجِسْتِيرِ فِي دِرَاسَةِ الْآدَابِ، قَدَّمَ لَهُ وَالِدُهُ هَانَسٌ مَجْمُوعَةَ الْقَوَانِينِ السَّائِدَةِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بِكُلِّ فَخْرٍ وَوَسَطٍ اِحْتِفَالَاتٍ.

عَنْ عُمُرِ ٢١ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً كَانَ لُوَثِرُ قَدْ تَمَيَّزَ بِذَكَائِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، بَعْدَ أَنْ تَرَبَّى فِي نِظَامِ التَّعْلِيمِ الْكَلَّاسِيَّةِ الَّذِي كَانَ يَفْتَضِي مِنَ التَّلَامِيذِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا اللَّاتِينِيَّةَ بِطَلَاقَةٍ، لِأَنَّ اللُّغَةَ اللَّاتِينِيَّةَ كَانَتْ لُغَةَ الْجَامِعَةِ. كَانَتْ لُغَةُ الْمُنْخَرِطِينَ فِي عِلْمِ الْقَانُونِ. كَانَتْ لُغَةُ اللَّاهُوتِيِّينَ وَالْأَطِبَّاءِ وَالْمُحْتَرِفِينَ الْآخَرِينَ. لِذَا، تَدْرِبُ لُوَثِرُ فِي دِرَاسَتِهِ لِيُصْبِحَ مُحَامِيًا أَفَادَهُ تَمَامًا فِي مَا تَبَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ. وُلِدَ لُوَثِرُ فِي عَامِ ١٤٨٣. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ هَذَا، إِنْ كُنْتُمْ قَدْ عَدَدْتُمْ السَّنَاتِ مِنْ ١٥٠٤ وَعَدَدْتُمْ ٢١ سَنَةً إِلَى الْوَرَاءِ. إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا مَوْعِدَ وِلَادَةِ لُوَثِرِ فِي التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ، تَخَيَّلُوا السَّالِي فَحَسَبُ، وُلِدَ عَامَ ١٤٨٣ أَيْ أَنَّهُ كَانَ فِي الثَّاسِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ عِنْدَمَا اكْتَشَفَ كَرِيستوفرُ كُولومبوسُ الْعَالَمَ الْجَدِيدَ. كَيْفَ نَعْرِفُ ذَلِكَ؟ لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ فِي عَامِ ١٤٩٢ أَجْرَحَ كُولومبوسُ فِي الْمَجِيذِ الْأَزْرَقِ. كَانَتْ مُخْتَلِفُ التَّعْجِيراتِ وَالِاضْطِرَابَاتِ تَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ حِينَئِذٍ. وَلَمْ يَكُنْ اكْتِشَافُ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ أَهَمَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي سَتَحْدُثُ.

كَانَ وَالِدَاهُ مِنَ الْفَلَاحِينَ فِي أَلْمَانِيَا فِي غَابَةِ الثُّورُنْجِيَانِ. وَكَانَ هَانَسُ لُوَثِرٍ، وَالِدُهُ، قَدْ تَرَكَ حُقُولَ الزَّرَاعَةِ لِيُصْبِحَ عَامِلًا فِي الْمَنَاجِمِ. وَنَجَحَ فِي هَذِهِ الْمِهْنَةِ فِي مِنتَقَتِهِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ، وَمِنْ خِلَالِ مَهَارَاتِهِ الْإِدَارِيَّةِ وَالتَّعْهَدِيَّةِ، تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يُصْبِحَ مَالِكًا ٦ مَشَاغِلِ حَدِيدٍ مِمَّا رَفَعَ مِنْ شَأْنِ عَائِلَتِهِ الْاِفْتِصَادِيَّ بِشَكْلِ مَلْحُوظٍ. لَكِنَّ حُلْمَهُ الْكَبِيرَ كَانَ أَنَّهُ مِنْ خِلَالِ تَعْلِيمِ ابْنِهِ مَارْتِنِ، كَانَ سَيَحْطَى بِابْنٍ يَكُونُ مُحَامِيًا بَارِرًا، وَكَانَ لِيُصْبِحَ ثَرِيًّا وَيَتَمَكَّنَ مِنَ الْعِنَايَةِ بِأَهْلِهِ فِي آخِرِ عُمُرِهِمَا. وَقَدْ تَقَدَّمَ كُلُّ ذَلِكَ بِشَكْلِ جَيِّدٍ فِي هَذَا الْأَتَّجَاهِ، إِذْ كَانَ لُوَثِرُ فِي أَوَّلَى سَنَاتِ دِرَاسَتِهِ يَكْسِبُ سُمْعَةً كَطَالِبٍ فِي عِلْمِ الْقَانُونِ، لَامِعٍ بِشَكْلِ اسْتِثْنَائِيٍّ فِي حَقْلِ الْقَانُونِ. تَذَكَّرُوا هَذَا بَيْنَمَا نُكْمِلُ بِتَحْلِيلِ الدَّورِ الَّذِي لَعِبَهُ لُوَثِرُ فِي الْإِصْلَاحِ الْبُرُوتِسْتَانِيَّ. كَانَ لِذَلِكَ عِلَاقَةٌ وَثِيْقَةٌ بِفَهْمِهِ لِلْقَانُونِ، لِأَنَّهُ اسْتَفَادَ مِنَ الْمَهَارَاتِ الْقَانُونِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ الْقَانُونِيَّ لِيُطَبِّقَهُ فِي دِرَاسَتِهِ لِلنَّامُوسِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ.

الْأَرْزَمَةُ الَّتِي عَيَّرَتْ حَيَاتَهُ وَالَّتِي عَيَّرَتْ الْعَالَمَ إِلَى الْأَبَدِ حَدَّثَتْ فِي يُولْيُو عَامَ ١٥٠٥. بَيْنَمَا كَانَ لُوَثِرُ يَسِيرُ عَائِدًا إِلَى الْمَنْزِلِ مِنَ الْجَامِعَةِ، فِي وَسْطِ الْيَوْمِ حَدَّثَتْ عَاصِفَةٌ صَوَاعِقَ قَوِيَّةً، وَبَيْنَمَا كَانَ يَسِيرُ إِذَا بِصَاعِقَةٍ تَضْرِبُ الْأَرْضَ عَلَى بُعْدِ خَطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَقِفُ. كَانَتْ قَرِيبَةً مِنْهُ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُا أَوْقَعَتْهُ أَرْضًا. وَاعْتَبَرَهَا رِسَالَةً مِنَ اللَّهِ. ارْتَعَبَ تَمَامًا وَصَرَخَ مِنْ خَوْفِهِ "سَاعِدِينِي يَا قَدِيسَهُ حَتَّى فَأُصْبِحَ رَاهِبًا". سَبَبَ أَنَّهُ رَفَعَ صَوْتَهُ إِلَى الْقَدِيسَةِ حَتَّى هُوَ لِأَنَّ

الْقَدِيْسَةَ حَتَّةَ، وَهِيَ أُمُّ مَرِيَمَ، كَانَتْ الْقَدِيْسَةَ شَفِيْعَةً عَامِلِي الْمَنَاجِمِ، وَكَانَ لَهَا مَكَائِهَا الْمُمَيِّزُ فِي الصَّلَوَاتِ الْيَوْمِيَّةِ فِي مَنْزِلِ عَائِلَةِ لُوْثِرَ. لِذَا، فِي لِحْظَةِ الْأَزْمَةِ، صَرَخَ إِلَى السَّمَاءِ لِجَمَاعِيَةِ الْقَدِيْسَةِ حَتَّةَ.

وَقَدْ وَفَّى بِهَذَا الْعَهْدِ، وَانْتَقَلَ فِي عَجَلَةٍ إِلَى الرَّهْبَنَةِ الْأَوْغُسْطِينِيَّةِ فِي مَدِينَةِ إِيرْفُورْتِ قُرْبَ الْجَامِعَةِ. وَاخْتَارَ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا الدَّيْرَ تَحْدِيدًا لِأَنَّهُ عَرَفَ بِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ تَشُدُّدًا وَتَطَلُّبًا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الرَّهْبَنَاتِ، مِمَّا يَعْكَسُ عُمُقَ مُؤَسَّسِهَا الْقَدِيْسِ أَوْغُسْطِينِ. بِرِعْبَتِهِ بَأَنَّ يُصْبِحَ رَاهِبًا قَدَّمَ نَفْسَهُ أَمَامَ بَابِ الدَّيْرِ، فَرَحَّبَ بِهِ رَئِيسُ الدَّيْرِ، فَدَخَلَ وَطَرَحَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ الَّذِي يُطْرَحُ عَلَى كُلِّ مُبْتَدِيٍّ "مَاذَا تَطْلُبُ؟" وَكَانَ جَوَابُ لُوْثِرَ "نِعْمَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَكُمْ". أَدْخَلَ الرَّهْبَانِيَّةَ كَمُبْتَدِيٍّ، وَيَوْمَ رَسِمَ هُنَاكَ كَرَاهِبٍ كَانَتْ لِحْظَةً سَاخِرَةً أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ لِحْظَةٍ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ بِرَأْيِي. كَانَتْ تَقَالِيدُ الْمَرَامِسِ تَفْتَضِي أَنْ يُقَدَّمَ الْكَهَنَةُ أَوْ الرَّهْبَانُ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ كُرْسِيِّ مَذْبَحِ الْكَنِيسَةِ، وَتَوَجَّحَ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَمَدَّدَ عَلَى الْأَرْضِ وَيَدَاهُ مَفْتُوحَتَانِ، فَيَشْكَلُ بِجَسَدِهِ شَكْلَ الصَّلِيبِ مُرْتَدِيًا ثِيَابًا غَيْرَ مُرِيحَةٍ أَبَدًا. وَفِي وَضْعِيَّةِ التَّوَاضُعِ هَذِهِ تُكْمَلُ الْمَرَامِسُ. مَا هُوَ الْأَمْرُ السَّاخِرُ فِي هَذَا؟

لَأَفْسَرَ الْفِكْرَةَ يَجِبُ أَنْ أُخْبِرْكُمْ أَنِّي مِنْذُ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ قَدْتُ جَوْلَةً فِي أَلْمَانِيَا عَبْرَ عَيْنِي لُوْثِرَ، وَزُرْنَا جَمِيعَ الْمُدُنِ الْمُهَمَّةِ فِي حَيَاتِهِ. الْمَدِينَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا أَيْزَلِينِ الَّتِي، وَبِحِكْمَةِ اللَّهِ، أُمِسَتْ لِاحِقًا الْمَدِينَةَ الَّتِي تُوَفِّي فِيهَا. ذَهَبْنَا إِلَى وَيْتَنْبُرْغِ حَيْثُ عَلَّمَ فِي الْجَامِعَةِ وَنَشَرَ أَطْرُوحَاتِهِ الْخَمْسَةَ وَالْعِشْرِينَ عَلَى بَابِ كَنِيسَةِ جَمِيعِ الْقَدِيْسِينَ هُنَاكَ. ذَهَبْنَا إِلَى فُورْمَزِ حَيْثُ بَدَأُوا النِّظَامَ الْإِمْبْرَاطُورِيَّ عَامَ ١٥٢١. ذَهَبْنَا إِلَى لِيْنَزِيغِ حَيْثُ تَمَّتْ مُشَاوَرَةٌ مُهَمَّةٌ سَنَتَكُمُ عَنْهَا لِاحِقًا، وَبِالطَّبْعِ زُرْنَا إِيرْفُورْتِ وَذَهَبْتُ إِلَى كَنِيسَةِ الدَّيْرِ هُنَاكَ وَنَظَرْنَا إِلَى الْمَوْقِعِ حَيْثُ رَسِمَ لُوْثِرَ. وَالْيَكْمُ السُّخْرِيَّةُ، فِي السَّنَةِ الَّتِي قُمْنَا بِهَا بِهَذِهِ الْجَوْلَةِ كَانَ هُنَاكَ احْتِفَالٌ بِلُوْثِرَ، وَانْتَشَرَتْ صُورُ لُوْثِرَ وَرُسُومَاتُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِي أَلْمَانِيَا الشَّرْقِيَّةِ. عَلَى كُلِّ مَبْنَى كَنِيسَةٍ وَكُلِّ لَوْحَاتِ الْإِعْلَانَاتِ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِيهَا صُورَةٌ لِمَا رَتِنَ لُوْثِرَ، وَخَلْفَهُ ظِلٌّ بِجَعَةٍ.

وَلَمْ أُدْرِكْ وَقْتِيذِ مَعْنَى ذَلِكَ حَتَّى، لِذَا قُمْتُ بِأَبْجَائِي وَاكْتَشَفْتُ أَنَّ السَّبَبَ فِي أَنَّ صُورَةَ الْبَجَعَةِ تُرَيَّنُ تِلْكَ الْإِعْلَانَاتِ مَعَ صُورِ مَا رَتِنَ لُوْثِرَ، يَعُودُ إِلَى الْأَحْدَاثِ فِي مَا كَانَ يُدْعَى نُشِيكُوسُلُوفَاكِيَا فِي مَدِينَةِ بَرَاغِ، حَيْثُ نَشَرَ أُسْتَاذٌ مَعْرُوفٌ هُنَاكَ أَعْمَالًا مَفَادَهَا عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ وَحْدَهُ يَحْتَوِي عَلَى كَلِمَةِ اللَّهِ الْمُوحَى بِهَا، وَلَا يُمَكِّنُ مُسَاوَاتِهِ بِمَرَامِسِ الْكَنِيسَةِ وَتَعَالِيمِهَا. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، وَمِنْ أَجْلِ عَقَائِدِ أُخْرَى كَانَ يُعَلِّمُهَا، وَاجَهَ مَشَاكِلَ مَعَ الْكَنِيسَةِ الْقَائِمَةِ وَحُوكِمَ عَلَى أَنَّهُ مُهْرَطِقٌ. كَانَ اسْمُ الرَّجُلِ جُونِ هَاسِ. كَلِمَةُ هَاسِ أَوْ أَوْسِ فِي نُشِيكُوسُلُوفَاكِيَا تَعْنِي إِوْرَةَ.

وَمَا حَدَثَ هُوَ أَنَّهُ بَيْنَمَا حُوكِمَ هَاسِ وَرَفُضَ أَنْ يَتَرَاجَعَ عَنْ كِتَابَاتِهِ، حَكَمَ عَلَيْهِ الْأُسْقُفُ الْمَسْئُولُ بِالْمَوْتِ حَرْقًا عَلَى الْوَتْدِ. رَفُضَ هَاسُ أَنْ يَتَرَاجَعَ وَإِذْ كَانَ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يُعَدَّمَ قَالَ لِلْأُسْقُفِ الْمَسْئُولِ "يُمْكِنُكَ أَنْ تُحْرِقَ هَذِهِ الْإِوْرَةَ أَوْ تَطْهَرُ هَذِهِ الْإِوْرَةَ إِنْ أَرَدْتَ، لَكِنْ سَتَأْتِي بَعْدِي بِجَعَةٍ لَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ إِسْكَانِهَا". وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَعْرُوفَةً

في كُلِّ أُنْحَاءٍ أوروبًا، لِذَا عِنْدَمَا ظَهَرَ لُوَثْرٌ عَلَى السَّاحَةِ رُحِبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُ التَّحْقِيقُ النَّبَوِيُّ لِفِكْرَةِ جُونِ هَاسٍ عَنِ الْبَجْعَةِ الَّتِي سَتَأْتِي. لِذَا وُجِدَتِ الْمُلَصَّقَاتُ وَفِي خَلْفِيَّتِهَا الْبَجْعَةُ.

حَسَنًا، أَيْنَ السُّخْرِيَّةُ؟ إِلَيْكُمْ السُّخْرِيَّةُ. عِنْدَمَا قَدَّمَ لُوَثْرٌ نَفْسَهُ لِلرَّسَامَةِ عِنْدَ أُدْرَاجِ مَذْبَحِ الْكَنِيسَةِ فِي الدَّيْرِ فِي إِيرِفُورْتِ وَتَمَدَّدَ عَلَى الْأَرْضِ وَوَيْدَاهُ مَفْتُوحَتَانِ، كَانَ تَمَامًا أَمَامَ الْمَذْبَحِ، وَقَدْ دُفِنَ أَمَامَ الْمَذْبَحِ تَحْتَ حِجَارَةِ الْكَنِيسَةِ الْأُسْفُفِ الَّذِي حَكَمَ عَلَى جُونِ هَاسٍ بِالْمَوْتِ. وَأَوْدُ أَنْ أُعِيدَ كِتَابَةُ التَّارِيخِ قَلِيلًا فَأَجْمَلُهُ، فَهَذَا مِنْ حَقِّ الْوُعَاظِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَأَجِبُ أَنْ أَفَكِّرَ أَنَّهُ عِنْدَمَا قَالَ جُونِ هَاسٍ لِلْأُسْفُفِ "يُمْكِنُكَ أَنْ تُحْرِقَ أَوْ تَظْهَرُ هَذِهِ الْإِوَزَّةُ، لَكِنْ سَتَأْتِي بَجْعَةٌ لَنْ تَتَمَكَّنَ مِنْ إِسْكَاتِهَا". أَوْدُ أَنْ أَفَكِّرَ أَنَّ الْأُسْفُفَ أَجَابَ هَاسَ "عَلَى جُثَّتِي". لَكِنْ كَمَا قُلْتُ، هَذَا مَا أَتَمَّنَى لَوْ أَنَّ التَّارِيخَ سَجَّلَهُ، لَكِنِّي أَجْمَلُ التَّارِيخَ نَوْعًا مَا.

يَبْدُو فِي سَنَوَاتِ لُوَثْرِ الْأُولَى أَنَّهُ كَانَ يَمِيلُ نَحْوَ الْمُرُورِ بِأَزْمَةٍ مِنْ نَوْعِ مَا تَحْدُثُ كُلَّ خَمْسِ سَنَوَاتٍ تَقْرِبًا. أَوْلَاهَا الْأَزْمَةُ عَامَ ١٥٠٥ مَعَ الصَّاعِقَةِ، وَأَجِبُ أَنْ أَدْعُوَهَا "الصَّاعِقَةُ الَّتِي غَيَّرَتِ الْعَالَمَ". لَكِنَّهُ عَانَى مِنْ أَزْمَةٍ أُخْرَى عَامَ ١٥١٠ عِنْدَمَا زَارَ رُومًا، وَأَزْمَةً ثَالِثَةً عَامَ ١٥١٥ عِنْدَمَا مَرَّ بِتَجْرِبَةِ الْبُرْجِ حَيْثُ فَهِمَ الْإِنْجِيلَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى فِي حَيَاتِهِ. لَكِنْ أَوْلًا يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَ مَا حَدَثَ مَعَهُ عِنْدَمَا دَخَلَ الدَّيْرَ. لَمْ تَكُنِ الْأُمُورُ جَيِّدَةً فِي الْمَنْزِلِ. كَانَ الْأَبُ هَانَسٌ غَاضِبًا مِنْ ابْنِهِ إِذْ خَيَّبَ أَمَلَهُ بِعَدَمِ مُتَابَعَةِ سَعْيِهِ فِي الْمِهْنَةِ الْقَانُونِيَّةِ. لُوَثْرٌ نَفْسُهُ، عِنْدَمَا دَخَلَ الدَّيْرَ أَقْسَمَ أَنْ يُصْبِحَ أَفْضَلَ رَاهِبٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ، تَذَكَّرَ لِاحِقًا وَقَالَ "إِنْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ شَخْصٍ سَيَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ عَبْرَ الرَّهْبَنَةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ أَنَا". لِذَا، فِي خِلَالِ سَنَوَاتِ ابْتِدَائِهِ، وَلَا حِقًّا بَعْدَ رِسَامَتِهِ رَاهِبًا بِالْكَامِلِ، تَابَعَ فِي الْجُدُولِ الصَّارِمِ الَّذِي تَنْصُ عَلَيْهِ حَيَاةُ الرَّهْبَنَةِ، وَمِنْهَا الصَّلَاةُ فِي أَوْقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْيَوْمِ. وَكَانَ لِذَلِكَ أَثَرٌ عَلَى حَيَاتِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلَ صَلَاةٍ مُنْضَبِطًا طِيلَةَ أَيَّامِ حَيَاتِهِ.

لَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْبُ، بَلْ أَيْضًا مُمَارَسَةُ الْإِعْتِرَافِ الْيَوْمِيِّ. كَانَ لِكُلِّ رَاهِبٍ أَبٌ يُعْرِفُهُ تَوَجَّبَ عَلَيْهِ لِقَاؤُهُ كُلَّ يَوْمٍ كَجُزٍّ مِنَ الْإِنْضِبَاطِ الرَّوْحِيِّ. لَكِنْ لُوَثْرٌ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى إِغَاظَةِ مُعْرِفِهِ وَمَا تَبَقَّى مِنْ سُلْطَاتِ فِي الدَّيْرِ، لِأَنَّ سَائِرَ الْإِخْوَةِ كَانُوا يَدْخُلُونَ وَيَقُولُونَ "أَبَتَاهُ، قَدْ أَخْطَأْتُ فِي خِلَالِ السَّاعَاتِ ٢٤ الْمُنْصَرِمَةِ. اشْتَهَيْتُ عَشَاءَ الدَّجَاجِ الْخَاصَّ بِالْأَخِ جُونَاثَانَ الْبَارِحَةَ، أَوْ سَهْرَتِ ٥ دَقَائِقَ بَعْدَ إِطْفَاءِ الْأَنْوَارِ". كَمَ مِنَ الْمَشَاكِلِ يُمَكِّنُكُمْ أَنْ تَتَوَرَّطُوا فِيهَا فِي دَيْرٍ مُمَائِلٍ؟ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِخَطَايَاهُمْ فِي ٥ دَقَائِقَ، وَيَنَالُونَ الْعُفْرَانَ، وَمِنْ ثَمَّ يَعُودُونَ إِلَى مَهْمَاتِهِمْ فِي الدَّيْرِ. كَانَ الْأَخُ لُوَثْرُ يَأْتِي وَيَعْتَرِفُ بِخَطَايَا السَّاعَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْعِشْرِينَ طِيلَةَ ٢٠ دَقِيقَةً أَوْ نِصْفِ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَةٍ، أحيانًا سَاعَتَيْنِ أَوْ ٣ سَاعَاتٍ، إِلَى أَنْ يَسَامَ الْمُعْرِفُ مِنْهُ وَيَقُولَ لَهُ "أَيُّهَا الْأَخُ مَارْتِنُ لَا تُحْضِرْ لِي هَذِهِ التَّجَاوُزَاتِ الْبَسِيطَةَ. إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُحْطِيَ أَمْنَحْنِي مَا يَسْتَحِقُّ الْمَغْفِرَةَ".

لَكِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ عَمَلِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لَوْثَر. كَانَ تَلْمِيذَ نَامُوسٍ وَقَانُونٍ بِامْتِيَاذٍ. كَانَ يَنْكَبُ عَلَى النَّامُوسِ بِدِقَّةٍ. أَذْرَكَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ أَنَّ الْوَصِيَّةَ الْعُظْمَى هِيَ أَنْ تُحِبَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ، وَتُحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَنْفُذْ هَذَا طَيِّبَةً سَاعَةً بِكَامِلِهَا. إِذَا إِذْ قَارَنَ كَامِلَ عُمُقِ نَامُوسِ اللَّهِ مَعَ حَيَاتِهِ، كُلُّ مَا رَأَهُ هُوَ الذَّنْبُ، إِذَا كَانَ يَدْفَعُهُ الشَّعْفُ نَحْوَ اخْتِبَارِ الْغُفْرَانِ، غُفْرَانٍ حَقِيقِيٍّ وَدَائِمٍ. لَكِنَّ هَذَا الشَّعْفُ لَمْ يَتَحَقَّقْ قَطُّ فِي الدَّيْرِ. وَسَنَتَكَلَّمُ فِي حِصَّتِنَا الْمُقْبِلَةَ عَنِ الْأُزْمَةِ الَّتِي حَدَثَتْ مُنْذُ تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ وَحَتَّى زِيَارَتِهِ لِرُومَا فِي عَامِ ١٥١٠.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِير، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلُّنَا لَاهَوِيُّونَ" (Everyone's A Theologian).